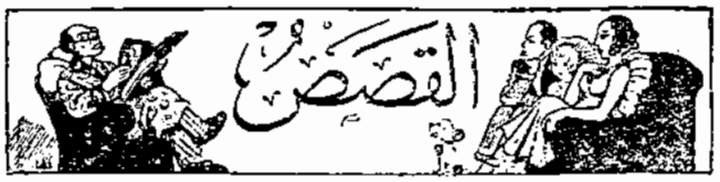

من أدباء الجيل !

للأستاذ محمد سعيد العريان

كانت أشعة الصباح ذابلةً صفراء ترتعش لكل نسمة تهب ؛ وكان الجو عاصفاً ، والمطر يلطم زجاجَ النافذة فينفذ رشاشُه من فروجها ، ويسيل قطراتٍ على الجدار ؛ وفى زاوية من الغرفة كان الفتى التحيل جالساً إلى نضد صغير يكتب ...

منذ ساعات ، والفتى فى مجلسه ذاك يستنزل الوحىَ ويؤلف أشتاتَ المعانى ، لا يكاد يحس شيئاً حوله ، والناس نيام ! يجب أن يفرغ من إعداد هذه الخطبة التى يكتبها قبل الصباح ؛ إن هنالك من ينتظر ... ...

ودقت الساعة اثنتى عشرة دقة ، فرفع الفتى رأسه عن أوراقه ووضع القلم وفى عينيه أثر الجهد والإعياء ... وارتفق بذراعه على النضد الذى يتخذه خواناً بالنهار ومكتباً بالليل ، فسمع له مثل صرير الباب تضربه الريح ... ودار بعينيه فى الغرفة التى تضم كلَّ ما يملك من متاع ، ينقل بصره بين البذلة المعلّقة بالمشجب ، والطربوشِ الملقى على الوسادة ، والفراشِ المشعّث منذ غادره فى الصباح الباكر ؛ ثم زفر زفرة ... وخرجت من بين الكتب المركومة إلى جانب الحائط دُوَيبّةٌ صغيرة تلتمس طريقها إلى الباب فى تثاقلٍ وبطء ... وارتمى إليها نظرُ الفتى ، فابتسم ... ثم قلب شفته فى رثاء : « آه ، حتى أنتِ يا مسكينة ... تسهرين الليل مثلى فى البحث عن القوت ! »

ثم عاد إلى مكتبه وأوراقه ...

* * *

وفرغ الفتى من عمله ، فأشعل آخر دخينة فى علبته ... ثم أخذ يقرأ لنفسه ما كتب ...

وأشرق وجهه راضياً ، كأنما مسحتْ على آلامه يدٌ رحيمة ؛ ثم هبّ واقفاً وعلى شفتيه ابتسامة الرضى والسلام ، وبسط أوراقه أمام عينيه ... وعاد يقرأ :

« أيها السادة ! ... »

وخُيّل إليه فى موقفه ذاك ، أنه هُوَ ما هو بين الناس ، فى جمعٍ حاشد تشرئبُّ أعناقهم إليه ، فلعب به الزهو واستخفّته الكبرياء ، واستمر يخطب ...

« ... أشكر لكم هذا التقدير الغالى ... إن أمة تحتفى بأدبائها هذه الحفاوة العظيمة ... ... »

وأحسّ شيئاً يَخِزُه فى صدره فلم يتمّ ... « التقدير الغالى ... والحفاوة العظيمة ... » أين هو من هذه المعانى ؟

إنه منذ سنوات وسنوات يجاهد جهادَه للفنّ والأدب ، وينشئ كل يوم فى تاريخ الآداب فصلاً جديداً ، وها هو ذا اليوم حيث بدأ منذ سنوات وسنوات : لا يذكره أحد ، ولا يعترف له إنسان ؛ ولم يُجْدِ عليه جهاد السنين شيئاً ... ولكنه مع ذلك مسئول أن يعمل ، وأن يدأب ، لا ينى ولا يستريح ؛ لأنه يريد أن يعيش !

وغامَ وجهه بعد صفاء ، وذبلت الابتسامة على شفتيه ، وتخاذلت كبرياؤه ، وعاد إلى نفسه يفكر فيما عليه من فرائض الحياة

لقد أوشك الصبح أن يسفر ، وإن عليه موعداً أن يغدو مبكراً على « الأديب الكبير فلان ... » ليدفع إليه الخطبة التى أعدّها وبذل فيها سواد ليله وعصارة قلبه ، ويقبض ثمنها ، شأنه معه منذ سنوات ... !

وطوى الفتى أوراقه كأنما يلفُّ ميتاً فى أكفانه ؛ ثم أطفأ المصباح وأوى إلى فراشه !

* * *

واستيقظ بعد ساعات ، فلبس بذلته ، ونفض الغبار عن طربوشه ؛ ثم سكّ باب غرفته ومضى يهبط السلالم درجةً درجة ، وفى يمناه الخطبةُ التى أعدها ليلقيها الأديب الكبير ... فى حفلة تكريمه ! يا للسخرية !

وسار على حيد الطريق ويسراه فى جيبه تعبث بما فيه من قروش ، وفى رأسه خواطر تصطرع وتموج ...

أرأيت إلى الأب يمشى وحيداً فى جنازة ولده العزيز ليشيعه

إلى مثواه ؟ كذلك كان يمشى هذا الفتى وفى يمناه أوراقه مطوية فى غلافها !

وعاج على بائع الصحف فاشترى واحدةً ؛ فأخذ يقلّب صفحاتها حتى انتهى إلى الموضوع الذى يبحث عنه ، فمضى يقرؤه ...

... لم يكن موضوعاً جديداً عليه ، لقد قرأه من قبلُ مرات حتى ليعرف دلالة كل حرف فيه . أتراه يقرأ الساعةَ من الصحيفة التى فى يده أم يقرأ من غيب صدره ؟ ... وانقبضت نفسه حين انتهى إلى الإمضاء ؛ ثم ابتسم ... !

... ماذا عليه أن يبيع المجد لطلابه بالمال ؟ ... إنه يعطيهم مما يملك لينتفع منهم بما لا يملك . وماذا يجدى عليه المجد والشهرة وذيوع الصيت وإنه لمحتاجٌ إلى الرغيف ؟

ليت شعرى ، أىُّ الرجلين أكثرُ جدوى على صاحبه ؟ ذلك الذى يعطى الفرش أم هذا الذى يأخذه ؟

وخُيِّل إلى الفتى أنه عرف الجواب ، فطابت نفسه وعاوده الشعور بالرضا والاطمئنان !

ونام الفتى فى تلك الليلة ملء عينيه وملء بطنه ... لا يعنيه من أمر الحياة شيء ... !

وسهر « الأديب الكبير » ليلته يستظهر الخطبة المعدة ليلقيها مساء غد فى حفلة تكريمه ... !

وأشرق الصبح ، فنهض الفتى من فراشه ولبس بذلته وخرج لبعض شأنه ، وعاج على نادٍ فى الطريق يتناول فطوره ، فطاب له المجلس ...

وجلس إلى جانب الباب يُتبِع عينيه كل غادية ورائحة فى الطريق ، وتسرحتْ خواطره فنوناً من مشهد قريب إلى معنى بعيد ، وانتقل من دنياه يجرى فى عنان الأوهام ... فما صحا من أحلامه إلا على صوت النادل يمد إليه يده بورقة الحساب ، وعاد إلى الحقيقة ، ولكن بعد مشوار طويل فى وادى المنى ...

ودفع ما عليه ونهض ، ليعود إلى غرفته فيغلق بابها عليه ويجلس إلى مكتبه يستنزل الوحى ويؤلف أشتات المعنى ، وانتهى مما كتب والشمس فى صفرة الأصيل : فغادر غرفته مجلان ليشهد حفلة التكريم !

* * *

... وكانت الردهة الفسيحة ليس فيها موضع لقدم ، وقد نُصبت المقاعد صفوفاً صفوفاً فما بينها فرجة تتسع لعابر ؛ واختلطت أصوات المجتمعين فما يبين صوت من صوت ، وسكنت الأصوات فجأة حين بدت طلعة الأديب الكبير ، وتطاولت إليه الأعناق تنظر ؛ ومضى الأديب الكبير فى طريقه ثابت الخطو وهو يرفع يديه إلى رأسه ، حتى انتهى إلى مقعده فى صدر المكان والعيون ناظرة إليه ...

ووجد الفتى مكاناً فى أدنى الردهة إلى الباب ؛ فجلس وإنه ليشعر مما به كأنه غريب فى هذا المكان !

وتعاقب الخطباء خطيباً بعد خطيب وشاعراً بعد شاعر ، يمدحون الأديب الكبير ويمدّدون أياديه ، وهو مطرق الرأس من خجل ، لا يزيد على أن يبتسم !

وخُيِّل إلى الفتى فى مجلسه البعيد من خياله أشياء ؛ فكأنما هذا الاجتماع الحاشد ، وهذا الثناء الرطب ، من أجله هو وحده ، وكأنه هو هو ولا أحد هناك ، فأطرق رأسه من خجل كذلك ، لا يزيد على أن يبتسم !

وماذا يضيره أن يجهل الناس اسمه ومكانه وإنهم ليعرفون من يكون بآثاره وأدبه ؟ ماذا يضيره أن يكون كتابه فى أيدى القراء بلا غلاف ولا عنوان ... ؟

ومضت ساعة ووقف الأديب الكبير ليؤدى واجبه لهؤلاء الذين اجتمعوا لتكريم أدبه والحفاوة به ، وأخذ يقرأ من غيب صدره :

« أيها السادة ! »

« ... وأشكر لكم هذا التقدير الغالى ... وإن أمة تحتفى هذه الحفاوة بالنابغين من أدبائها لحقيقة بالخلود ... »

وقال الرجل الذى يجلس إلى جانب الفتى فى الصف الأخير ونَظَر إليه : لله ما أحكم منطقه وأسدّ بيانه !

قال الفتى : شكراً !

وسمعها الرجل وابتسم ؛ فما يملك أكثرُ من أن يبتسم ، وإنه ليعرف أن مجالس الأدب هى أحفل المجالس بالمجانين

واستمر الأديب الكبير يخطب :

« إنى لمدين للأمة بما أبذل لها من أعصابى ومن دمى ؛ شاكرٌ لله ما وهب لى من قدرة تهيئنى لأن أكون بهذا المحلّ الرفيع بين أبناء قومى ...

« ... إن الأدب الذى يسمو بضمير الأمة ، ويشرع لها طريقاً إلى المجد والخلود ... »

والتفت الفتى إلى جاره يقول : « لقد نسى فقرة طويلة ... إنها كانت أجمل ما فى خطبته ! »

ونظر إليه جاره فلم يتمالك أن ضحك ؛ فوضع راحته على فمه يكتم ضحكته أن تسمع ؛ وتنبه الفتى بعد سهوة ، فاحمر وجهه ثم اصفر ؛ ثم نهض فغادر المكان ... !

* * *

ونهض الفتى من فراشه مبكراً بعد ليلة ساهدة ؛ فقصد إلى دار الأديب الكبير يهنئه على ما نال من إعجاب الناس وما ظفر به من التقدير والمكانة ، ويستعينه على أمر ...

وقرأ صحف الصباح فى الطريق ؛ فعرف ما فاته مما كان فى الليل ...

ودق الجرس فانفتح الباب ، وقدم الفتى بطاقته إلى الخادم ، فخلفه واقفاً بالباب ينتظر ودخل يستأذن سيده ؛ ثم عاد إليه بعد لحظة يعتذر ، لأن سيده نائم !

واحمر وجهه من الغيظ ولبث واقفاً بالباب برهة ، ثم مشى وفى نفسه ثورة تضطرم ، ومضى على غير وجه !

وتذكر الفصل البديع الذى انتهى من كتابته أمس قبل أن يغادر غرفته إلى مكان الاحتفال ؛ فأخرجه من جيبه ومشى يقرؤه ...

لا ، لا ؛ لن يكون بعد اليوم ذيلاً لأحد يبيعه نفسه برغيف من الخبز ؛ إنه ليعرف اليوم قدر نفسه أكثر مما عرف فى يوم من الأيام ؛ لقد قالها الناس أمس كلمة صريحة وعنها أذناه ؛ إنه هو هو وإن جهل الناس اسمه ومكانه !

وسعى إلى إدارة الصحيفة التى نشر فيها أول ما نشر من منشآته منسوباً إلى الأديب الكبير ؛ وأى الصحف أولى بتقدير أديه والاعتراف بفضله غير الصحيفة التى عرف منها (الأديب الكبير) أول ما عرف ، ثم كانت أول من دعا إلى تكريمه والحفاوة به ؟ ... لهو هو وإن جهلت الصحيفة اسمه ومكانه !

واستأذن على المحرر ودخل ، فدفع إليه الورقات التى فى يده ...

ونظر المحرر نظرة إلى وجهه وهندامه ، ثم أثبت وضع النظارة على عينيه وأخذ يقرأ هذه الورقات ، ولكن من آخرها ؛ ثم دفعها إلى الفتى ... وفى صوت متأنق سمعه الفتى يقول : « يا بنى ، إنها محاولة ، وإنى لأرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى تنشر فيه ما تكتب ، بعد أن تأخذ عدتك وتنضج ... ! »

وفتح الفتى فمه وهم أن يتكلم ، ثم سكت ، واتخذ طريقه إلى الباب فى صمت ...

ومن النافذة التى طالما سهر بجانبها الليالى إلى مكتبه يستنزل الوحى ويؤلف أشتات المعانى ، وقف يطل على الناس ساخراً ، ثم أخرج الورقات من جيبه فرقها وأسلمها إلى الريح تنثرها على الرءوس كسرب مذعور من الطير الأبيض !

* * *

... وحين نشرت الصحف أن الحكومة قد رصدت من مال الدولة بضعة آلاف لمعاونة الأديب الكبير فلان ... على تنفيذ مشروعه الأدبى العظيم ... كان الفتى جالساً يقرأ الجريدة فى ظل شجرة على رأس الحقل ، ويستريح برهةً مما جهد فى الحرث والزراعة ؛ وخار الثور المربوط إلى المحراث ، كأنما يريد أن ينبه الفتى إلى أنه قد آن أوان العمل !

... ولكن الصحف لم تلبث أن عادت فنشرت فى الغد ، أن الأديب الكبير قد كتب إلى الحكومة يشكر ويعتذر ؛ لأنه قد اعتزل الأدب فما له هفوةٌ إليه بعد !

وأسف الناس إذ قرءوا ما قرءوا ، ولكن شخصاً واحداً كان يعرف ، وكان يبتسم !

محمد سعيد العريان